تأويل النص القرآني والمنهج البنائي

أ.م .د٠طالب حسين / فلسفة
كلية الامام الكاظم ع / النجف الاشرف
أ م د ٠ هاجر دوير/ علم الكلام
كلية التربية المختلطة /جامعة الكوفة

مقدمة:

منذ أوائل القرن العشرين بدأت تبرز العلاقة بين الفلسفة واللغة من خلال فلسفة الوضعية المنطقية التي قصرت مهمة الفلسفة على تحليل اللغة منطقيا، وتحديد الجمل ذات المعنى عن الجمل عديمة المعنى ، ومع العقد السادس من القرن العشرين تطور الاهتمام الفلسفي باللغة وأصبح التأويل ؛ ولاسيما تأويل النصوص ؛ من ابرز مباحث الفلسفة وأصبحت أهم النتاجات الفلسفية تتناول النصوص الإبداعية وعلاقتها بالمعنى والتأويل ،كما في نصوص دريدا وريتشارد روتي وامبرتو ايكو وغيرهم٠

وهذا المنعرج اللغوي في الفلسفة كانت من مظاهره إشكالية تأويل النصوص الكبرى والإبداعية ؛ فكانت هناك مجموعة أسئلة إشكالية مثل الأسئلة: هل النص الإبداعي له معنى تنتجه دواله ومرتبط بها أم أن معناه هو ما تخفيه هذه الدوال وما تكتمه ؟ وإذا كان له معنى ناتج عن دواله ؛ فهل هو مقيد بهذه الدوال أم انه حر يتعدد بتعدد التأويل والقراءة نتيجة تبعيته لاستعمال القارئ له؟ ولو كان للنص معنى مستقل تنتجه دواله بما تظهره من دلالة؛ يكون القارئ كاشفا عنه بفاعليته الايجابية مع النص وليس باستعماله ، فهل هناك آلية للوصول إليه ؟ وهل هناك معايير لتحديد التأويل والقراءة الصحيحة والتقنية عن التأويل و القراءة غير الصحيحة والآيديولوجية ؟ ٠٠٠الخ من أسئلة تفصيلية داخل كل سؤال منها ٠

وهنا لابد من الإشارة الى أن المقصود بالتأويل ليس الدلالة السلبية التي هي قهر النص وجعله كعجينة بيتزا ، بل هو النشاط المعرفي الذي يستند الى قواعد ويقود الى استعادة معنى النص الذي غيبت جوهره صروف الدهر واختلاف الأعصر كما عبر عن ذلك في الفكر التأويلي المعاصر .

ومن هنا كان موضوع البحث : تأويل النص والمنهج البنائي ، حيث يرى الباحث أن للمنهج البنائي علاقة بهذه الإشكالية ،فيمكن أن يقرأ على انه إسهام في حل هذه الإشكالية ، وعلى وفق هذه القراءة كان البحث على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تناول تنقيح إشكالية حقيقة النص دلاليا في الفكر الفلسفي المعاصر،وبيان إن هناك اتجاهين: اتجاه ينفي أن يكون للنص معنى تنتجه دواله وان معناه في ما يخفيه وما يتستر عليه واتجاه يثبت له معنى ولكنه يرى أن المعنى في استعماله؛ أي تابع لقراءة المتلقي ، ومقارنة نتيجة هذين الاتجاهين مع بعض النصوص عن المعصومين عليهم السلام وبعض علماء أصول الفقه التي تتعلق بدلالة النص القراني٠

المبحث الثاني: في هذا المبحث تم تناول النص القرآني حسب رؤية المنهج البنائي من حيث علاقته بالتمييز الفلسفي المعاصر للنص من حيث القابلية على التأويل و أن النص القرآني يندرج ضمن النصوص ذات القابلية المحدودة على التأويل مما يجعله مندرجا ضمن موضوع إشكالية التأويل المعاصرة٠

المبحث الثالث :تناولنا فيه مفاصل المنهج البنائي وبيان دوره في الإسهام في حل إشكالية التأويل المعاصرة ،سواء في محددها الكلي المانع من دخول التأويلات غير المناسبة التي لاتنتجها دوال

النص وشبكيته الدلالية أو في آليات إنتاج الدلالة القراءة التأويلية وانضباطها وعدم انزلاقها في الممارسة التأويلية ٠

وقد كان تناول هذا المنهج في ضوء المنجز الفلسفي المعاصر،فتم عرض نصوص الفكر التأويلي المعاصر عرضا وصفيا وقراءة نصوص مبتكر هذا المنهج في ضوئها ، من دون أن يعني ذلك أن منجز باحثينا يحتاج الى في إثبات تميزه الى أن يندرج في الإبداع الغربي ، بل انه كان من باب أن المنجز تتعمق القناعة به وتترسخ إذا التقت العقول في إنتاجه مع تباينها في اطر ابتكاره ، زيادة على أن الإشكالية التي قُرِء المنهج البياني في ضوءها والتي ولدت موضوعه ذاتُ مصدر غربي ، فهذا العرض ذو ضرورة اثباتية – فنية ٠

وهنا نود الإشارة إلى أن هذه القراءة للمنهج البياني لم تطرح من قبل مبتكره ، مع انه ذكر له ثمرات زيادة على كونه منهجا جديدا في التفسير ، وإنما قراءة خاصة من الباحثَين ، وهي عنصر مؤكد لأرجحية قراءة النص القرآني بعيدا عن الدلالة السياسية مقارنة مع قراءة بعض الكتاب الذي قرئه على انه يؤسس لما اطلق عليه: دولة الانبياء ٠

ومن هنا تأتي اهمية هذا البحث ، فمع ان عنوانه يندرج قي الدرس الفلسفي المعاصر، الا انه في مآله – ان تم قبول فرضيته واثباتها – سيكون احد عناصر حماية النص القرآني من التأويلات المستحدثة والمؤدلجة سياسيا التي ان لم تتوقف سنكون امام دين جديد يكون ثمنه الدين المحمدي والمدنية الحديثة ٠

المبحث الأول :النص والطاقة التأويلية:

مـع القـرن التاسـع عشـر بـدأ الاهتمـام البـارز بإشـكالية تتعلـق باسـتنطاق النصـوص الإبداعيـة وتأويلها وبالخصوص النصوص المقدسة ؛ وقد اخذ هذا الاهتمام مديات اوسع مع مرور الزمن الى ان أصبح التأويل هو الموضوع الغالب على البحث الفلسفي المعاصر لاسيما مع ظهور الاتجاه التفكيكي والاتجاه البرغماتي الحديث الذي زلزل الثقة بالمعرفة بعد الثقة الكبيرة بها ولاسيما مع انجازات ديكارت وفلاسفة المعرفة اليقينية في الفلسفة الحديثة ؛ وخصوصا اذا لاحظنا ان النص من اهم المواد التي يستمد الانسان المعرفة منها وكونها اداة نقل المعرفة من الماضي الى الحاضر واداة تبادلها في الزمن الواحد .

وفي الحقيقة اننا ومع ظهور هذين الاتجاهين نكاد نكرر الاشكالية المعرفية في الفلسفة اليونانية التي تولدت مع الاتجاه السفسطائي الذي نادى بعدم وجود حقيقة ثابتة ونسبية المعرفة؛وما رافقه من مضاد منهجي ومعرفي المتمثل بفلسفة سقراط التي دعت الى وجود معايير للحقيقة الثابتة والمطلقة.

اذ كما ظهر هذين الاتجاهين ؛فانه ظهر اتجاه ينادي بوجود حقيقة ثابتة لكل نص وان هناك معايير توصلنا الى تلك الحقيقة ؛ومن خلالها نستطيع تمييز التأويل الصحيح من التأويل الفاسد ، ومن ثمة فإننا امام اتجاهين اساسين في حقيقة النص من حيث امتلاكه للمعنى وعدم امتلاكه ؛ وهو ما يولد لنا تساؤلا في اطار موضوع البحث وهو: ما موقع النص القرآني بالنسبة لهذه الاشكالية، هل هو خارج عنها ام مشمول بها ؟

أولا:النص والحقيقة:

في العقد السابع من القرن العشرين اخذ يظهر اتجاه ينفي عن النص كونه رسالة تواصل بين المنتج والمتلقي وهو ما اشتهر بالاتجاه التفكيكي ؛ وهو يقوم على "استراتيجية تنطلق من موقف فلسفي مبدئي قائم على الشك "[١]،اذ اهم اهداف هذا الاتجاه ؛بل هو الهدف المركزي ؛ القضاء على مركزية العقل ، فيعمل التفكيكي على ممارسة "حرث في حقل البداهات العقلية ٠٠٠تلك الادوات المعرفية والاجهزة المفهومية التي يستعملها الفلاسفة في خطاب العقل منذ ارسطو"[٢] ؛ ومن الطبيعي ان من يقوم بتهديم بداهات العقل ومركزيته سيقوم برفض وجود حقيقة ثابتة في أي مورد ممكن ان يكون قالبا لها ؛ومنها النص الذي هو في الحقيقة الحاضنة الحافظة لمنتجات العقل على مر التاريخ ومعه بدأ التاريخ ، ومن هنا كان النص اول ضحايا هذا الاتجاه ، اذ معه نكون امام "تشكك في الافكار الموروثة عن العلامة واللغة و النص والسياق والمؤلف "[٣] ،لذا يتم تجاوزها عند القارئ التفكيكي، فلم تعد العلامة واللغة والنص ادوات لنقل معرفة مسبقة ومن ثمة يفقد السياق موضوعه بل يفقد المؤلف دوره ؛ لأنه حسب المنهج التفكيكي لن تكون هذه الادوات إلا أدوات مخاتلة؛فهو يتعامل مع النص "بوصفه استراتيجية للحجب و الخداع والنسخ والتحويل والتحريف"[٤]،فمثل هذا التعامل لن يترك للمؤلف أي دور ما دام هو اداة لهذه الاستراتيجية ،بل لابد له من القضاء عليه ليتفرغ الى نصه ليكشف "ما يسكت عنه ولا يقوله ؛الى ما يستبعده ويتناساه،انه نبش للأصول وتعرية للأسس وفضح للبداهات"[٥]،اذ النص في ماهيته اداة تضليل و خداع يخفي وراءه ما لا يدركه حتى المؤلف وليس على القارئ الا الكشف عن هذا الماوراء؛وليس الامر يتوقف عند هذا الحد ؛بل حتى هذه القراءة بدورها

تكون "نصا جديدا يتطلب بدوره تفكيكا آخر يمكن ان يدحض المعاني والدلالات المكتشفة مما يؤدي الى توليد نص جديد ينبغي تفكيكه هو الاخر وذلك الى ما لا نهاية"[٦] .

وما دمنا امام حقيقة ان كل قراءة تخفي وراءها المسكوت عنه وما هو مخفي؛فان ما نصل اليه هو اللاحقيقة ،ومن ثمة فان "القراءة الوحيدة لنص ما والتي يمكن التعويل عليها هي قراءة خاطئة"[٧].

وبهذه الاستراتيجية تم القضاء على النصوص ومن ثمة على اهم مصادر نقل المعرفة بين البشر،واصبحت عملية انتاج النصوص كما يقول " تودروف ...مجرد رحلة ...يجلب فيها الكلمات بينما يجلب القراء المعاني"[٨] ،مما يعني ان المعنى شيء طارئ على النص تابع للقارئ واهدافه و ثقافته ؛ومن ثمة ستكون كل قراءة مشروعة ما دامت تابعة في وجودها لمنتجها وليس للنص أي دور فيها ؛بل في الحقيقة ان النص يمثل نقيضها ما دام ينظر اليه على انه عبارة عن لعبة تخفي ادواتها الكلمات وآلياتها البلاغية في مجازاتها واستعاراتها،ومن ثم لم تعد اللغة لغة الحقيقة بل هي اداة وهم وخيال ،وذلك ان كون اللغة هي لغة مجاز فهذا يعني اننا امام اختلاف بين المنقول بالغة وبين المنقول في ذاته ؛فهو " اختلاف يعزل الدال عن المدلول"[٩]،وهذا الانفصال يكشف لنا عن الوهم الذي عاشته الفلسفة بكون" لغتها تتسم بالدقة والرصانة العلمية ...وانها توحد بين الدال والملول "[١٠]

اذن حسب استراتيجية التفكيك ،فان النتيجة النهائية "ان المعنى الحقيقي للنص هو لامعناه أوهو في فراغه من المعنى "[١١]،لان " النص ...يشكوا ...من غياب ذات الكتابة ومن غياب الشيء المحال عليه او المرجع"[١٢].

غير ان هذا المذهب التقويضي للنصوص وعدمية الحقيقة والمعنى لم يمنع من ظهور اتجاه آخر لم يخرج من اطاره العام ، وهو الاتجاه البارغماتي الذي صرح ابرز اقطابه وهو ريتشارد روتي :ان التفكيكية هي ضمن حدود الاتجاه البرغماتي[١٣].

ان هذا الاتجاه انطلق من نتائج الاتجاه التفكيكي بعدم وجود معنى للنص وان كل قراءة هي قراءة سيئة او جيدة على السواء ؛وان القراءة انما مرجعها التوليدي هو القارئ وليس دوال النص، فطرح رؤيته بان القراءة هي في الحقيقة استعمال للنص وتوظيف له من قبل القارئ لأهدافه الخاصة؛" فلا يوجد في الاصل تأويل للنصوص،بل توجد استعمالات فقط ،اننا نستعمل النصوص حسب مقاصدنا وغاياتنا المعلنة وغير المعلنة"[١٤] ،وتجد هذه البرغماتية اسسها في ماهية النص وادواته ،اذ انه مركب من كلمات وهي ليست اشياء تكوينية من حيث وجودها الدلالي ،بل هي منتج بشري وضعي ؛وهي في النصوص ذات الموضوعات الفلسفية والادبية والدينية تكون "تابعة لأصحابها ،هي من ذاتياتهم ومن ابداعهم وليس كالأشياء معطاة في الواقع ومستقلة "[١٥]،ومن ثمة ان النص مجرد اداة لذات انتجتها ، وكما كانت اداة لها ؛يمكن ان تكون اداة لنا ما دامت مكوناته ليست اشياء حقيقية في وجودها الدلالي،فنستطيع ان نجعله مصدرا "يزودنا بدوافع تجعل اقتناع او اقناع الاخرين نسبيا يسيرا أو عسيرا لما كنا نميل الى قوله مباشرة"[١٦].

ثانيا :النص القرآني موضوع تأويلي:

ان النتيجة التي انتهى اليها الاتجاه التفكيكي و الاتجاه البرغماتي وان استندت الى اسس لا نجد لها سابقة في التراث الاسلامي وبالخصوص في مناهج قراءة النصوص، إلا ان الواقع التاريخي لتعدد القراءات يعد من المؤيدات لهذه النتيجة ،بل اكثر من ذلك ان هناك نصوصا مقدسة تنص على ان النص القرآني غير حاسم الدلالة على المستوى الاثباتي وله القابلية على ان يكون غطاءا اثباتيا لكل ما يطرح من افكار وان كانت افكارا باطلة ، فعن الامام الصادق عليه السلام :" احذروا فكم من بدعة زخرفت بآية من كتاب الله ينظر الناظر اليها فيراها حقا وهي باطل"[١٧]،وقد علق عليه الحر العاملي بقوله:

"انا وجدنا جميع اهل المذاهب الباطلة والاعتقادات الفاسدة يستدلون بظواهر القران الكريم استدلالا اقوى من الاستدلال على الاحكام التي استنبطها المتأخرون من آيات الاحكام بآرائهم"[١٨] وهو يشير بالمتأخرين الى الفقهاء الذين يستندون الى قواعد اصول الفقه في استنباط الاحكام الشرعية في المدة الممتدة من القرن السادس الهجري الى ما يقارب القرن العاشر الهجري٠

وهذا النص يتطابق مضمونيا مع نص امير المؤمنين علي عليه السلام في وصيته لابن عباس عندما ذهب لمحاججة الخوارج " لا تخاصمهم بالقران ؛فان القران حمال ذو اوجه تقول ويقولون٠٠٠"[١٩]،فهنا قوله عليه السلام:حمّال هو تعبير اخر عن كونه ذا طاقة تأويلية قابلة لقراءات مختلفة ،لذا نصح ابن عباس بعدم الاستناد اليه في الحجة لأنه من حيث انه نص لا يدل على معنى حاسم ؛لأنه " يتحمل الفاظه بسياقه الخاص ان تحمل على معان مختلفة ووجوه عديدة فاذا تمسك احد بمعنى وفسره بما يوافق مقصوده ؛تمسك الخصم بوجه اخر وتفسير يخالفه"[٢٠]،ولهذا نجد امير

المؤمنين عليه السلام يبين انه هو المحدد الحاسم للدلالة الثبوتية في النص القرآني بقوله:"هذا كتاب الله الصامت وانا كتاب الله الناطق"[٢١].

اذن النصوص المعصومة التي تعلم علما كاملا بالقران الكريم تؤكد ان النص القرآني بما هو نص قابل لتعدد القراءات ،وهي نصوص في الحقيقة يؤكدها واقع الفكر الاسلامي الاجتهادي،فنجد المجبرة تستند في اثبات مقولاتها الى النص القرآني في الوقت نفسه الي نجد فيه المذاهب التي تؤمن بحرية الانسان تستند اليه، والامر يتكرر في المذاهب الفلسفية والصوفية وغيرها،وهي حقيقة يجدها كل باحث في الفكر الاسلامي ، بل حتى في الوقت الحاضر الى درجة ان نجد كاتبا مسيحيا يستند الى نصوص من القران لإثبات صحة عقيدته في المسيح وغيرها من العقائد[٢٢] ،اذ يرى هذا الكاتب انه " يشهد القران في عشرات من آياته لصحة التوراة والإنجيل"[٢٣].

واذا كان نص المعصوم يلتقي مع الاتجاه البرغماتي من حيث واقع النص القرآني عند المسلمين وغيرهم ، فان هناك موقفا عند بعض علماء اصول الفقه من الاتجاه الاخباري ؛ ويمكن القول ان هناك من يؤيده من الاتجاه الاصولي ،يلتقي مع الاتجاه التفكيكي في النتيجة من " ان مهمة اللغة هي اظهار ان ما يمكننا التحدث عنه هو فقط توافق الاضداد"[٢٤]،ولذا فان دوال النص لن تكون قادرة على التوافق مع بعضها البعض ،مما يؤدي الى " ان أي معنى نمنحه لنص ما مهما كانت شموليته يتفكك بالضرورة وبكيفية تلقائية تحت تأثير العناصر الاخرى التي لم يكن قادرا على ادماجها"[٢٥]،فهذا الطرح التفكيكي نجده متضمنا دلاليا في احد الاسس التي استند اليها الاتجاه الاخباري من عدم صحة الاستدلال بالنص القرآني من دون معونة نص المعصوم ، فقد استند الى "ان ظواهر القران الكريم اكثرها متعارضة بل كلها عند التحقيق ؛ وليس لنا قاعدة يدل عليها يعتد بها المنصف في الترجيح"[٢٦]

، ومن الثابت عند جميع علماء اصول الفقه ان التعارض المستقر – كما هو الفرض – هو التساقط أي ان كل دال ينفي الدال الآخر المعارض له ، وهو ما يتفق مع الطرح التفكيكي .

ان هذا الواقع الذي يواجهه النص القرآني كان مدركا من الرسول الاكرم صلى الله عليه واله،فكان يعلم ان النص القرآني ستمارس عليه تأويلات متعددة تبعا لأغراض خاصة تؤدي الى انحراف الرسالة عن المسار الذي رسمه لها الله سبحانه وتعالى ،لذا اكد في اكثر من نص على وجود المحدد لهذه التأويلات والمعيار في التمييز بين ما هو صحيح وما فاسد منها وهو الامام امير المؤمنين علي عليه السلام كما في النصوص التالية:

- يا علي انت اخي وانا اخوك ،وانا المصطفى للنبوة وانت المجتبى للإمامة ،انا صاحب التنزيل وانت صاحب التأويل[٢٧].
- يا علي انت تُعلم الناس تأويل القران بما لا يعلمون[٢٨].
- ان منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله وهو علي بن ابي طالب[٢٩].

وهذا المضمون يكاد يكون متواترا معنويا في احاديث اخرى الى درجة نجد امام اللغويين الفراهيدي يستشهد بمضمونه في كتاب العين[٣٠].

اذن اشكالية التأويل من اقدم ما يواجه النص القرآني وأخطرها ،وهي تتعمق مع الزمن لاسيما مع المنجز الفلسفي – اللغوي المعاصر الذي طرح عديدا من الافكار حوله مما زاد في اشكاليته على المستوى النظري التحليلي زيادة على اشكاليته على المستوى التطبيقي،مما نحتاج معه الى مزيد من الجهد المعرفي لبيان حدود قراءة النص القرآني لان النص المعصوم في حديث للإمام الصادق عليه السلام قد اخبرنا بـ"ان للقران حدودا كحدود الدار"[٣١]

المبحث الثاني: القران نص مفتوح:

انتهينا في المبحث السابق الى نتيجة ان القران قابل لتعدد التأويل والقراءة،غير ان هذه النتيجة لا تحدد لنا درجة القابلية ، اذ انه في الفكر التأويلي المعاصر تم التمييز بين النصوص من حيث درجة القابلية على التأويل الى نصوص مفتوحة والى نصوص مغلقة،ذلك ان النص الابداعي بما هو منتج لغوي تواصلي يخاطب متلقيا يشترك مع منتجه في شفرة التواصل اللغوي ،وهو في الوقت نفسه ليس نصا ساذجا مكتوب بلغة الحياة اليومية ،بل هو نص مكتنز الدلالة تكون له حمولة دلالية واسعة ،فهو " واحد ومتعدد في الوقت نفسه ؛واحد بالقصد الواحد ومتعدد بدلالته المحتملة واضافاته واوضاعه المتجددة ،وهذا ما يجعل بعض النصوص الهامة ٠٠٠نصوصا فعالة تثير موجة من التفسير لا تنقطع ،بما يجعل هذه الوحدة تتعدد عبر التاريخ"[٣٢] ، وهذا التعدد لا يكون بدرجة واحدة في هذه النصوص ،بل قد يكون هذا التعدد مفتوحا بل لانهائيا وقد يكون متعدد في حدود معينة ، وهذا الانفتاح والتحديد ناتج عن حقيقة ان لكل نص ابداعي "قارئ ومتلق و٠٠٠تاريخ والمعاني الاصلية للنص الا امور قد نقترب منها بالبحث الفيلولوجي المدقق ان ازلنا عن اعيننا غشاوة العقيدة وتجردنا عن متطلباتها"[٣٣] ، وبعكس ذلك نكون قد ابتعدنا عنها؛لان لكل نص عالمه الخاص وشبكيته الدلالية الخاصة المتولدة من خصوصيات مكوناته، فهو " يخلق واقعه ويمتلك وقائعيته ٠٠٠انه يشكل امكانا للتفكير او وسطا للفهم او ملتقى للحقائق"[٣٤] ،فاذا تم اقحام ما هو خارج عن عالمه اللغوي والدلالي بل والانتاجي نكون قد انتجنا عالما جديدا هو في الحقيقة عالم يشوه العالم النقي الذي تم انتاجه من قبل المؤلف وفق استراتيجية معينة وشبكة دوال لها دلالات قد تتسع او تضيق ٠

وحسب هذه الاستراتيجية تتميز النصوص ؛فقد يكون منتج النص قصد ان يكون نصه نصا مؤمما وملكية مشتركة قابلة للتأويل بدرجة مفتوحة لا حدود لها فنكون اما نص مغلق" منفتح على أي قراءة ٠٠٠ينفتح على كل احتمالات التفسير ٠٠٠يقبل كل تأويل محتمل ٠٠٠مثل هذه النصوص المغلقة ٠٠٠تنفتح على كل قراءة محتملة "[٣٥]، فمهما سعى المتلقي الى تحديد قراءة خاصة بها ؛فهي بشبكيتها الدالية وعالمها الدلالي تغلق امامه باب الحسم والتحديد ويبقى باب الاحتمالات التأويلية الاخرى مفتوحا،فهي نصوص مغلقة داليا مفتوحة دلاليا، وبالمقابل من هذه النصوص ؛هناك نصوص مفتوحة داليا مغلقة دلاليا ؛غير ان هذا الانفتاح و الانغلاق ليس حديديا ،فهو من مقولة الاضافة ؛ له مدى يتوقف عنده ،اذ هو "النص الذي سعى مؤلفه الى تمثل دور القارئ اثناء عملية بناء النص وبالتالي فهو يبيح التأويل والتفسير ضمن حدود نصية معينة ومفروضة والتأويلات التي يتعرض لها هذا النوع من النصوص ٠٠٠اصداء لبعضها البعض"[٣٦]، فهذه النصوص تكون فيها مقاومة داخلية لا تترك القارئ مطلق العنان في قراءته، بل تفرض عليه قيودا واكثر من ذلك يكون للنص توجيه له وان كان توجيها في نوع من المرونة ،فهو يقبل التأويل وتعدد القراءة ولكنهما يبقيان في اطار خصوصيته إذ ؛ وان كانت له قابلية الانفتاح على التأويل ،لأنه "اثر مفتوح ٠٠٠من خلال كونه يؤول بطرق مختلفة "[٣٧]، الا انه انفتاح مقيد مشروط بان يتم هذا التأويل "دون ان تتأثر خصوصيته التي لا يمكن ان تختزل٠٠٠ونعيد احياءه في اطار اصيل"[٣٨] ،فهذه الاصالة الموجهة تجعل القارئ لا يستطيع استخدام النص كما يشاء وانما كما يشاء النص ان يستخدم ،فالنص المفتوح مهما كان مفتوحا لا يقبل أي تأويل يجعل للقارئ دور محدد لا يستطيع تجاوزه ،فهو يحدد مشروعا مغلقا لقارئه [٣٩].

اذن النص المفتوح يمنح القارئ قدرة برزخية ، فهو لا يلغي دور المؤلف ولا يكون المتلقي فيها متلقيا سلبيا محضا ،بل تكون له ايجابيته وفاعليته في توليد الدلالة ، فهو"ليس٠٠٠نسقا ينغلق على ذاته ،بل انه وان كان له نظامه وسياقه وان كانت له قواعد بناءه واشتغاله، فهو يبقى مجالا مفتوحا ويشكل مساحة يمكن التسلل من فجواته للكشف عن ٠٠٠تستر الخطاب "[٤٠] ٠

ان هذا التمييز والمرجعية الماهوية للنصوص من الحيثية المذكورة لا يختص بالنصوص البشرية بل يشمل النصوص المقدسة الالهية وبالخصوص القران الكريم لأنه وان كان منتجه الله سبحانه وتعالى ذا القدرة المطلقة والمباين المطلق لكل ما هو بشري وممكن ؛ إلا انه سبحانه عندما انتج القران فهو انتجه بلغة البشر وفق قواعدها وشفرة تواصلها ، ولقدرته المطلقة وبهدف اثبات مصداقية نبوة الرسول الاكرم صلى الله عليه واله واثبات اعجازه فقد انتجه بصورة فنية بالدرجة الاساس بحيث ان العالم الدلالي المنتج بهذه اللغة وبهذه القواعد تفوق قدرة البشر ، فالمادة وقواعد تشكلها بشري ولكن نتيجتهما غير بشرية،وهذا البعد البشري في النص القرآني هو الذي صحح انتاج العلوم المتعلقة بآليات تحليله داليا ودلاليا من نحو وصرف وبلاغة وغيرها من العلوم التي لها دخل في ذلك ، بل لولا هذا البعد البشري لما كان لهذه العلوم موضوع في النص القرآني،بل لانسد باب العلم به كليا وهو في الحقيقة نقض الغرض من انزاله٠

ولكن مع وجود هذا البعد البشري تبقى هناك امكانية السؤال حول وجود خصوصية من حيث درجة القابلية على التأويل ، وهو سؤال تناوله الدكتور البستاني ٠

وفي الحقيقة ان الدكتور البستاني كان قد تناول هذا السؤال في اطار ما تقدم من منجز تحليلي في الفلسفة المعاصرة حول طبيعة النصوص وعلاقتها بمنتجها وبالمتلقي ،وتبنى الرؤية التي تبقي

للمؤلف دوره في النص ورفض الرؤية التي تتعامل مع النص بوصفه وجودا مستقلا عن المؤلف " وازاحت ٠٠٠سلطة الكاتب ٠٠٠واقامت على انقاضها سلطة النص "[٤١]،فهو يرى ان لمنتج النص هدفا مسبقا ؛يكون النص وسيلته لإيصاله الينا، اذ نحن في كل نص امام احتمالين من حيث ارتباطه بالمؤلف وقد صاغهما البستاني بصيغة سؤال:"ما الهدف من وجود النص اساسا؟ هل يستهدف النص ٠٠٠توصيل مبادئه الينا ام انه عمل مفتوح يستهدف تنشيطا ذهنيا فحسب؛بحيث يدع كل متلق يستخلص من النص دلالة تتوافق مع مرجعيته الثقافية ،فيصاغ النص بحيث يخضع لتعدد التأويلات"[٤٢]٠

وهو في الحقيقة قد صاغ تساؤله في ثلاثة احتمالات ،غير ان الاحتمال الثالث لامورد له في دائرة النص القرآني ،اذ ان احتمال كونه نصا عبثيا لا هدف من وراءه هو احتمال منفي قطعا في الذات الحكيمة المطلقة التي كل ما يصدر عنها يكون بهدف ،وهي ذات البارئ عز وجل ﴿ **وما خلقنا السموات والارض وما فيهما لاعبين**﴾[٤٣]، بل يجب – كما يرى البستاني – ان تكون منتفية عند المسلم لان التصور الاسلامي للسلوك ينفي عبثيته[٤٤]، ومن ثمة ينحصر الامر بالاحتمالين السابقين٠

ومن الواضح حسب ظاهر كلام البستاني عندما يتكلم عن النص المفتوح،فهو لا يعني به النص المفتوح المقابل للنص المغلق ؛بل يعني به النص المغلق الذي – كما تقدم – مفتوح على كل تأويل ممكن ، لذا نجده ينفيه عن القران هذه الصفة ويصفه بما يتوافق مع النص المفتوح اصطلاحا ولكنه على نحو الجزئية ،فهو يرى ان " تعدد القراءات امر مقبول ولكن في مواقع خاصة من النص "[٤٥] ، وهذه الرؤية يصل اليها المتلقي من خلال النظرة الكلية لنصوص الاسلام المقدسة ،فهذه القابلية على

تعدد القراءات هي امر "ملاحظ في النصوص القرآنية وفي نصوص النبي صلى الله عليه واله واهل بيته عليهم السلام حيث يدع النص مناطق خاصة للمتلقي يسهم من خلالها في استخلاص الدلالة"[٤٦]بحيث ان هذا الاسهام لا يجعل المتلقي مستقلا في انتاج الدلالة ومبدعا آخر للنص في عرض مبدعه الاول كما هو الحال في بعض الاتجاهات المعاصرة في قراءة النصوص كما تقدم الاشارة الى ذلك،فالمتلقي وهو ينتج قراءته الخاصة فهو ينتجها " ليس من حيث كونه مبدعا ٠٠٠كما يزعم التفكيكيون بل من حيث كونه يستخلص دلالة قد جعلها النص مفتوحة لتذوقه الخاص حتى يحقق له متعة القراءة او من حيث كونه يملأ الفراغات التي تركها النص من حيث الاختزال او الاقتصاد اللغوي للنص"[٤٧].

وهذا الاسهام من المتلقي لا يكون على نمط واحد ،ففي بعض المناطق يكون استخلاص الدلالة عن طريق التنوع المفهومي وفي بعض المناطق يكون عن طريق التنوع المصداقي،وتارة يكون عن طريق ملأ الفراغات في النص، فعلى سبيل المثال رسم النص القرآني صورة للمنافقين بتشبيههم بمن استوقد نارا ولكنه يبقى في الظلمات بعد اذهاب الله نورها ٠٠٠الخ ؛فنحن امام "صورة ضبابية شفافة يستطيع كل متلق ان يفسرها في ضوء خبراته بالعمليات النفسية التي تطبع سلوك المنافقين"[٤٨]، وفي الوقت نفسه فان المتلقي عندما يلتقي بكلمات مثل النور والظلمات في النص القراني فانه يكون امام مدى من التعدد الدلالي حسب ما " يستخلصه ٠٠٠من رمز النور او عكس ذلك مما يستخلص من رمز الظلمات"[٤٩].

ولكن وجود مثل هذه المناطق في النص القرآني لا يعني عموميتها لكل جزيئاته ،اذ "خارجا عن ذلك فان النص لا يسمح لنا بتأويل دلالاته لبداهة انه يستهدف توصيل مبادئ خاصة للمتلقي"[٥٠]،وهو

ما يميز رؤية البستاني عن رؤية الفكر التأويلي المعاصر حول حقيقة النص المفتوح ودور القارئ في انتاج دلالته ، وهو تميز منطلق من حقيقة منتج النص القرآني وهو الله سبحانه وتعالى ، اذ ان التعامل مع النصوص البشرية يحتاج الى التدخل نتيجة عناصر ترتبط بالعنصر الذاتي للمؤلف وهو ملغي بالنسبة لله تعالى " والسر هو – كما نعرف ذلك جميعا– ان الله تعالى منزه عن الحدوث وان النبي صلى الله عليه واله واهل بيته تحجزنا عصمتهم عن عملية الربط بين النصوص الصادرة عنهم وبين التركيبة النفسية الكامنة وراء ذلك"[٥١] ٠

ولكن هذه الخصوصية لمنتج النص ومبيّنه الاول (المعصوم) لايعني التجاهل التام للزمان والمكان في عملية القراءة ؛حيث يؤخذا بوصفهما من عناصر اضاءة النص لا اصل انتاجه وذلك من خلال " الاشارة الى اسباب النزول او الاشارة الى الحياة الاجتماعية بعامة"[٥٢]، ولكن بشرط ان "تحدد بقدر الاضاءة التي يتحملها النص والا تتحول الممارسة الى بحث اجتماعي او تاريخي"[٥٣] ٠

وهكذا ننتهي الى نتيجة ان النص القرآني حسب رؤية البستاني يندرج في دائرة النصوص المفتوحة ،وهو ما ينقلنا الى مدى مساهمة المنهج البنائي في تحديد الآليات التأويلية التي يعالج بها ٠

المبحث الثالث:المنهج البنائي وآليات التأويل المعاصرة

كما تقدم في المبحثين السابقين ان الفكر التأويلي المعاصر قد خرج لنا باتجاهات تنفي عن ان يكون للنص حقيقة ثابتة الامر الذي يؤدي الى الغاء انتاجية النص للحقيقة ونقلها وهو امر سلبي جدا بالنسبة للمعرفة الانسانية مما يتحتم علينا تقديم الاليات التي تعيد للنص انتاجيته للحقيقة وهو ما قدمه بعض الفلاسفة المعاصرين والذي كان المنهج البنائي منسجما معه تمام الانسجام،ولذا سنعرض اسس المنهج البنائي ومدى الدور الذي يلعبه في اعادة انتاجية النص للمعرفة الخاصة به والاشارة الى انسجامه مع المنجز الفلسفي المعاصر ٠

اولا: المنهج البنائي والاسس الفكرية:

ان تاريخ المسلمين الحديث قد ابرز عديدا من المناهج التفسيرية الجديدة كمنهج التفسير العلمي ومنهج التفسير الايحائي وغيرها ،الا انها كلها ظلت في دائرة المنهج القديم الذي لم يتطرق الى حقيقة ترتبط بطبيعة النص القرآني وهي حالة يتفرد بها في تاريخ النصوص سواء منها المقدسة وغير المقدسة، اذ ان الوجود التدويني للنص القرآني يختلف عن وجوده التنزيلي ، فنجد آيات نزلت متأخرة زمنيا تتقدم في التدوين على آيات متقدمة عليها تنزيلا ، كما نجد آيات قد جمعت مع آيات لا رابط دلالي بينها كما في اية التطهير المختصة باهل بيت العصمة مع انها تدوينا توجد في السياق اللفظي الذي يتحدث عن نساء النبي صلى الله عليه واله،وهذا الترتيب التدويني قد قام به الرسول صلى الله عليه واله وبتأكيد منه وهو امر مجمع عليه بين المسلمين[٥٤]،ولكن لا نجد قبل البستاني من حاول ان يوجد منهجا تفسيريا يأخذ بنظر الاعتبار هذا الفعل النبوي المعصوم ويحاول سبر دلالاته ونتائجه على دلالة كل سورة باجمعها ٠

وهذه الحقيقة قد صرح بها البستاني ، فيقول في هذا الصدد : ان " الدراسات التفسيرية قديما وحديثا ٠٠٠لاتتناولان السورة بما انها نص تترابط وتتناغم آياته ومقاطعه وموضوعاته وعناصره وادواته فيما بينها "[٥٥] ، واذا وجدت بعض الدراسات الحديثة قد تناول المناخ الفكري العام للسورة الا انها لم تدرسها في بنائها المعماري والعضوي ؛ أي صلة كل اية بما قبلها وبما بعدها وصلة جميعها مع بعضها الاخر ؛ثم صلة اولئك بالعناصر الصورية والايقاعية او بالأدوات الفنية ،فهذه جميعا لم يتوفر عليها دارس موروث او معاصر[٥٦] ٠

اذن طرح الدكتور البستاني يعد نوعا مبتكرا في الدراسات القرآنية ، وهو طرح لم يكن ناتجا عن سعة خيال او ترف فكري ، وانما انطلق من اساس كلامي يرتبط بشخصية الرسول الكريم صلى الله عليه واله من حيث عصمته وغائية افعاله بما ينعكس على دلالة النص القرآني والرسالة التي يهدف الى ايصالها الينا ،اذا نجده يؤكد على ان منهجه هذا يستند الى مسوغات فكرية تستبطنها الاسئلة التالية:

- لماذا انتظم النص القرآني في ١١٤ سورة؟
- لماذا اتصلت كل سورة بطرح موضوعات محددة قد تتكرر وقد لا تتكرر في سورة اخرى؟
- لماذا ترد الموضوعات المتكررة في سياقات مختلفة؟
- لماذا كان النبي صلى الله عليه واله يأمر كتاب الوحي ان يضعوا الآية الفلانية في السورة الفلانية الى جانب الآية الفلانية؟[٥٧] ٠

وهي اسئلة تتوقف على ان فعل تنظيمها في النص القرآني بالشكل الحالي الذي بين ايدينا هو فعل معصوم ، والا لو لم يكن معصوما لما كانت ضرورة لمثل هذه الاسئلة، ولما كان كانت هناك

حتمية للعثور على اجابة لها، وهي اجابة يرى الدكتور البستاني انها تتمحور على وجود "اسرار واسرار تكمن وراء انتظام القران الكريم في سور مستقلة ٠٠٠بالشكل الذي نلاحظه"[٥٨]، وهذه الاسرار هي " ما يضطلع المنهج البنائي بتوضيحها"[٥٩] ٠

واذا كان الاساس الكلامي هو الدافع لطرح المنهج البنائي ،فان الطبيعة العامة لهذا المنهج قد ارتكزت على اساس نفسي – معرفي في انتاجيته الدلالية ،وهو اساس يتمثل بان " الذهن البشري يدرك الظواهر من خلال (الكل) ٠٠٠يستوي في ذلك ان يتم الادراك لـ (الكل) من خلال جزئياته أولاً ثم الانتقال اليه ، او من خلاله اولاً ثم الانتقال الى جزيئاته ، وفي الحالتين ثمة ادراك لا ينفصل كله عن جزئه و لا جزئه عن كله "[٦٠] ٠

ومما يعمق واقعية هذا الاساس وشموله لفاعلية العقل البشري في انتاجه النصوص وتلقيها ،انه يلتقي مع ما طرح في المنجز الفلسفي المعاصر في قراءة النصوص من مفهوم كلية النص بوصفه احد محددات التأويل واحد مؤشرات صحته ، الذي جاء ردا على الاتجاه التفكيكي في كون دوال النص تفجر بعضها بعضا ،اذ على العكس – حسب هذا المعيار– فان كل دال من دوال النص وكل علامة من علاماته " تكتسب كامل مظهرها وعمقها الدلالي على ضوء علاقتها التوليفية والدلالية مع (كل) العلامات الاخرى"[٦١] ،فيكون للنص (كل) هو احد موارد هذا الاساس الذي يبتني عليه المنهج البنائي٠

غير ان هذا الاساس وان كان صحيحا في نفسه ، غير انه اذا وظف بوصفه محددا تأويليا قد يواجه اشكال الحلقة المفرغة او الدور المنطقي ،وهو ما يعرف في المنجز التأويلي المعاصر بالدائرة الهرمونطيقية ، اذ ان الـ (كل) في واقعه الوجودي والدلالي منتزع من الاجزاء ،فوجوده بوجود اجزاءه

ومن ثمة تكون دلالته متوقفة على دلالة الاجزاء ، فان كانت الاجزاء متوقفة في دلالتها على دلالة الـ (كل) من حيث كونه قيدا تأويليا، فحينئذ ستوقف كل منهما على الاخر وهو الدور الصريح المستحيل منطقيا ،لذا كانت الدائرة الهرموطيقية احد الاشكالات التي واجهها المنجز الفلسفي التأويلي المعاصر؛ معترفا بكونها عائقا منطقيا امام محاولة جعل كلية النص قيدا تأويليا ، وهو ما صرح به امبرتو ايكو بقوله:" انا لا أخجل من التصريح بانني اعين الدائرة الهوموطيقية القديمة والصالحة مازالت"[٦٢] .

غير اننا يمكن الاجابة على هذه الاشكالية بالتمييز بين دلالة الكل ودلالة الاجزاء؛ علما ان الدور المنطقي يرتفع بالاختلاف الذاتي ؛ كما يرتفع بالاختلاف الاعتباري ، وهو ما يتحقق هنا ، اذ دلالة الكل اجمالية ودلالة الاجزاء دلالة تفصيلية ، أي ان هنا دلالة واحدة ولكنها تحصل بحيثيتها الاجمالية مع الكل، وتحصل بحيثيتها التفصيلية مع الاجزاء، وهو تمييز تضمنه كلام البستاني ، اذ يرى انه"عندما نقرأ السورة بكاملها ... فان مجموع الآيات من حيث ارتباط يعضها مع الاخر سوف يفضي بنا الى ... معرفة خاصة تفترق دون ادنى شك عن معرفتنا بجزئيات هذه السورة"[٦٣] ، اذن يوجد هنا افتراق،والدور انما يتم اذا كان هناك اتصال وجودي دلاليا بين الكل والاجزاء ، ومما يؤكد هذا الافتراق انه قد يحصل بصورة لاواعية ، اذ اننا " عندما ننتهي من قراءة أي سورة سوف نخرج بانطباع كلي عام عن هذه السورة سواء كنا واعين بها ام كنا غير واعين بذلك"[٦٤] .

وهذا الجواب يمكن ان نجد له اساسا آخر في المنجز الفلسفي اللغوي المعاصر من خلال ما يصطلح عليه حقل الايحاء الذي يستند على التمييز بين الدلالة المركزية للكلمة والدلالة الايحائية ، فالدلالة المركزية هي الدلالة التي ترتبط بجذر الكلمة وتكون حاضرة في جميع مشتقاتها ، في حين ان

الدلالة الايحائية هي المعنى المرتبط بالكلمة بمعزل عن معناها الاساس ؛ففرق مفهومي بين مفهوم الام ومفهوم الحب والطمأنينة والدفء[٦٥] ،ففي النص الابداعي المنظم تنظيما مضاعفا بحيث تتكرر التأثيرات ويظهر ايحاء موجه في اتجاهات معينة ،،اذ ان مثل هذا النص المنظم بهذا الشكل سوف يثير ايحاءات معينة وينشطها ويؤكدها ويدعمها ويعطل الايحاءات الاخرى ويبين انها غير ممكنة ،ولكي يستطيع النص ان يكون حقلا متجانسا ؛أي لا يكون خليطا من الايحاءات المبهمة ومولدا لكل اشكال التداعيات الاعتباطية ومن تكرار المثيرات التي تعمل على اثارة حالات متماثلة[٦٦].

وهذا هو روح المنهج البنائي – كما سيتضح في الفقرة التالية من خلال آلياته التفصيلية – حيث انه ومن خلال هذه الآليات يجعل مجموع الآيات في السورة القرآنية تتجه نحو دلالة مركزية تتمحور حول دلالاتها الجزئية،بحيث يلتقي عمل هذه الاليات مع مفهوم النص المضاعف في الفكر التأويلي المعاصر.

ثانيا :المنهج البنائي والأسس الفنية :

قد تقدم ان المنهج البنائي يقوم على مبدئ كون السورة القرآنية هي شبكة دلالية تلتقي عندها مختلف الدلالات الجزئية ، ولكن هذا المبدئ يبقى مجرد طرح وفرضية ما لم يقدم اثبات له بتقديم العناصر التي تتحقق هذه الشبكية الدلالية من خلالها ، وفي سبيل ذلك يرى البستاني ان الوحدة العامة التي تحكم السورة القرآنية يمكن النظر اليه من ثلاث زاويا :

١- من حيث الموضوعات والأهداف : وتكون هذه الحيثية حيثية الوحدة والتعدد؛ فإما وحدة فكرة وتعدد موضوع او وحدة موضوع وتعدد فكرة او تعددهما ٠

٢- من حيث الشكل :وهي حيثية بنائية ، فإما بناء طولي او بناء افقي او بناء مقطعي٠

٣- من حيث العلاقات : وهي حيثية ترتبط بالسورة المتعددة الموضوع ، فهنا قد تكون العلاقة بينهما سببية وقد تكون علاقة نمو او علاقة تجانس ، وهذه العلاقة الاخيرة تحتاج الى عناصر تحققها مثل عنصر القصة او الصورة الايقاعية [٦٧]٠

بالنسبة للزاويتين الاولى والثانية سوف نتجاوز التفصيل فيهما*لعدم مدخليتهما الاساس في جهة البحث في المنهج البنائي أي في اسهامه في حل اشكالية تأويل النص ،اذ هما لبيان التنوع المضموني و الهيكلي لسور القران الكريم ؛أي " تحديد للعرض او الرحلة التي تقطعها السورة "[٦٨]، من دون الكشف او التطرق الى الدلالة وآلية انتاجها في كل مقطع الذي هو المبين لدور المنهج البنائي في حل اشكالية التأويل ، ولذا سنتناول الزاوية الثالثة للكشف عن آلية هذا المنهج لبيان الدلالة الكلية للسورة وهي دلالة ستكون بمثابة السور الخارجي لدلالات السورة تحفظها من دخول التأويلات الغازية لعالمها الدلالي٠

لقد طرح البستاني عديد عناصر مع اشارته عدم انحصارها ،اذ بعد ان ذكر بعض هذه العناصر صرح الى انه " ثمة طرائق متنوعة لإيجاد الوصلة الفنية "[٦٩]، وعلى كل حال فانه قدم لنا العناصر التالية بوصفها الآليات التي تحقق الشبكة الدلالية للسورة القرآنية :

أ- التمهيد : هو عبارة عن مقدمة تبتدئ بها السورة تمثل استهلال النص بموضوع ما ؛ مما يؤدي الى استجابة المتلقي وتحسسه لهذا الموضوع وتحتفظ ذاكرته بهذا الجانب الذي تثيره ما دامت السورة الكريمة قد استفتحت به وسيتداعى في ذهنه مضمونه عندما يلاقي موضوعات اخرى داخل السورة[٧٠] .

والتمهيد كما قد يتصدر السورة فانه قد يتخللها ، فيكون في حالة التصدير مقدمة للنص ينعكس على الوسط والنهاية[٧١] ، ويكون في الحالة الثانية تمهيدا داخليا مختص بالموضوعات الداخلية التي تحتاج الى تمهيد ويكون وسيلة من وسائل الوصل بينها[٧٢].

٢- التجانس : بعد ان تقسم السورة على اقسام حسب تعدد الموضوعات ،يتم الانتقال بين هذه الموضوعات بطريقة متجانسة؛وذلك من خلال وجود عنصر يشترك بين الاقسام ؛بحيث يكون وجود هذا العنصر في القسم السابق ممهدا لوجوده في القسم اللاحق مما يجعل القارئ يدرك ان مضمون القسم السابق اراد تقرير حقيقة لها مدخلية بمضمون القسم اللاحق[٧٣] .

٣- النمو العضوي : مع هذا العنصر نكون امام آلية ربط بين موضوعات النص؛ حيث تذكر السورة مضمونا ثم تنتقل الى مضمون اخر يكون في دلالته العميقة تطوير وتنمية للمضمون السابق في هذه الدلالة ،فالسورة قد تستخدم قصة او حكم على موضوع معين عندما يقف القارئ عليها في مدلولها

العميق سوف يدرك ان هناك علاقة بينهما بـ " حيث تتنامى المواقف ويفضي بعضها الى بعض ويكون سابقها سببا الى لاحقها ولاحقها مسببا عن سابقها ٠٠٠ كل ذلك في خطوط بنائية"[٧٤] ٠

ان هذا التنامي الذي يدركه القارئ كما يتحقق بين الاقسام التي بينها علاقة سببية ؛قد يتحقق من خلال الانتقال " من فكرة الى فكرة اخرى لا ارتباط لها بسابقتها"[٧٥] ، وذلك بوجود رابط شكلي تسلسلي بين موضوع هذه الاثار بحيث يحصل " نمو مفهوماتها ، أي بداية الموضوع يطرح بشكل ثم ينتهي الى شكل اخر بحسب تسلسله او بحسب نماؤه"[٧٦]٠

٤- التداعي العضوي: في بعض حالات السورة القرآنية ؛عندما ينتقل القارئ من مقطع لآخر او من موضوع لآخر ، فانه – كما تقدم قبل قليل – قد لا يجد ارتباط بين الفكرة السابقة والفكرة اللاحقة ، الا ان الذهن سيستحضر الفكرة اللاحقة مع الفكرة السابقة [٧٧]،وهو استحضار مرتبط بالية النمو العضوي الذي تقدم في النقطة السابقة٠

في الحقيقة ان التداعي قد يكون نتيجة واحد من العناصر السابقة ،وذلك ان " كلا من التمهيد والتداعي والتجانس والنمو تتداخل في النقلة "[٧٨]،من موضوع لآخر ومن فكرة لأخرى ، بل يمكن القول ان هذه العناصر الثلاثة والعنصر الخامس وهو التضاد – الذي سنذكره بعد قليل– كلها هي عناصر مولدة للتداعي العضوي ، واما ذكره في عرضها في انتاج الشبكة الدلالية مع انه يذكره في طولها نظريا، هو ان دلالته تتعلق بما هو لازم هذه العناصر؛ ومن ثمة يكون مولدا لدلالة جديدة كما كانت هذه العناصر مولدة لدلالة خاصة بها ٠

٥- التضاد: الملاحظ ان البستاني لم يعرض هذا العنصر بالصورة نفسها التي عرض بها العناصر الاخرى ؛ من حيث تكرار التأكيد عليها وابرازها بعناوين مستقلة [٧٩] ،غير انه اشار اليه في ضمن احد نماذج منهجه ،وهو سورة الكهف ، حيث بين ان منهجه يساعد المتلقي على ادراك الاثر الكلي للسورة بخلاف القراءة التجزيئية والقراءة الموضوعية.

ويفهم من نموذجه هذا ان رابطة التضاد هو ان تتناول السورة ظاهرتين او النموذجين لكل منهما قيمة تضاد الآخر ، فيفهم المتلقي ان السورة توجهه الى دلالة لازمة لهما وهي نبذ القيمة السلبية[٨٠] ؛وليس هدف السورة الاخبار عنهما بما هما حدثان تاريخيان ، أي نحن في هذه الحالة امام صياغة خبرية يراد بها الانشاء .

كما ان عنصر التضاد يخلع على عمارة السورة القرآنية جمالية خاصة[٨١] ،مما يعمق الدلالة الانشائية المراد ابرازها بهذا العنصر ، حيث ان تقاطع الخطوط في السورة والمتمثلة بالمفاهيم المتضادة لكل من الظاهرتين يمنح المتلقي احساسا نفسيا بشدة التنافر مما يعمق عنده الدلالة برفض الطرف السلبي .

هذه ابرز عناصر توليد الدلالة الكلية للسورة القرآنية ، وهي في واقعها تؤكد العناصر التي طرحها الفكر التأويلي المعاصر لكي تقف امام القراءة وتمنعها من الانزلاق الى تأويلات مفرطة ، فهذا الفكر اكد على وجود وحدة عضوية للنص تمثل مقاومته الداخلية للتأويلات المفرطة ، كما اكد على نسقية النص بحيث تكون كل علامة او علاقة دلالية بمثابة إشارة او دلالة تحيل على معنى آخر مناسب ، وكذلك اكد على ضرورة وجود حقل ايحاء لكل نص يثير دلالات معينة ويعطل اخرى ومن الجلي ان هذه العناصر التي قدمها المنهج البنائي توفر النتائج التي ارادها الفكر التأويلي

المعاصر من طرح عناصره المتقدمة ، فالتمهيد يجعل القارئ يستحضر دلالة معينة تكون بمثابة حاجزا امام الدلالات الأخرى التي لا تتناسب مع دلالات التمهيد، ومن ثم تمنع انزلاق القارئ الى تأويلات مفرطة ، كما ان عنصر التجانس والنمو العضوي يحققان لنا الترابط النسقي والدلالات الايحائية ،لان كل منها يحقق عملية ربط بين السابق واللاحق ، ومن ثمة فان المنهج البنائي قد التقى كثيرا بنتائج الفكر التأويلي في الفلسفة المعاصرة ،مما يجعله نظيره الفكري والفني في مورد النص القرآني ونتخلص من مشاغبة مؤولي النص القرآني تأويلا مفرطا عندما نستعين بالمنجز الغربي لكشف فساد تأويلاتهم على اساس اننا نطبق ما هو غربي على ما هو اسلامي، اذ يمكننا ان نستعين بالمنهج البنائي في عملية الكشف هذه من دون الاستعانة بهذا المنجز مع انه منجز عقلي لا علاقة له بما هو غربي او شرقي ،فالعلم يتجاوز الزمان والمكان ٠

الخاتمة:

بعد هذه المسيرة مع إشكالية تأويل النص المعاصرة وقراءة المنهج البنائي في ضوئها ،فانه يمكن القول أن البحث قد خرج بالنتائج التالية:

١- إن النص القرآني على مستوى الإثبات يمكن أن يلتقي جزئيا مع اتجاهين طُرحا في الفكر التأويلي المعاصر حول طبيعة النص من حيث الدلالة،هي عدم امتلاك النص معنا، وامتلاكه معنا ولكن تبعا لاستعمال المتلقي

٢- إن إشكالية التأويل من أقدم التحديات التي واجهها النص القرآني من حيث قراءته وكانت متنبئا بها من الرسول الكريم صلى الله عليه واله وسلم.

٣- إن النص القرآني حسب رؤية المنهج البنائي يندرج جزئيا تحت النص المفتوح الذي طرحه الفكر التأويلي المعاصر.

٤- إن النص القرآني له بعد الهي من حيث الذات المقدسة المنتجة له وبعد بشري من حيث أدوات إنتاجه من لغة وقواعد بناء النص ، وهذا ما جعله داخلا في إشكالية التأويل وموضوعا للمنهج البنائي.

٥- إن المنهج البنائي يرفض الاتجاه الذي يفصل النص عن مؤلفه ويرى أن النص القرآني يملك رسالة من الله عز وجل يسعى الى توصيلها الينا .

٦- إن المنهج البنائي يرى أن للقارئ دور في إنتاج دلالة النص القرآني ، ويكون إما حسب التأويل المفهومي وإما حسب التأويل المصداقي.

٧- إن المنهج البنائي ينطلق من حقيقة كلامية وهي عصمة النبي صلى الله عليه واله وحقيقة معرفية وهي إن العقل البشري يدرك الظاهرة في كليتها قبل إدراك جزئياتها.

٨- إن العناصر الفنية للمنهج البنائي تلتقي من حيث النتائج مع بعض العناصر التي طرحها الفكر التأويلي المعاصر بوصفها محددات تمنع انزلاق التأويل الى تأويل مفرط.

٩- إن الدلالة الكلية التي ينتجها المنهج البنائي تمثل محددا كليا يمنع القبول بكل تأويل لا يدخل في مجال هذه الدلالة.

المصادر والمراجع

١. د٠ابراهيم انيس :دلالة الالفاظ ،ط بلا،مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة د٠ت

٢. د٠ابن مالك الجميل: انجيل المسيح حسب البشير يوحنا،ط،١،د ن،د م، ٢٠٠٤

٣. امبرتو ايكو : التأويل والتأويل المفرط،ترجمة :ناصر الحلواني،ط بلا،مركز الإنماء الحضاري،حلب، د ت.

٤. امبرتو ايكو :الاثر المفتوح،ترجمة:عبد الرحمن بو علي،ط٢،دار الحوار للنشر والتوزيع،اللاذقية٢٠٠١.

٥. امبرتوايكو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية،ط١،ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٠.

٦. الخليل بن احمد الفراهيدي :كتاب العين،ط٢،تحقيق واعادة ترتيب دار احياء التراث العربي،بيروت ٢٠٠٥.

٧. عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة ،ط١، المجلس الوطني للثقافة والفنون،سلسلة عالم المعرفة،كويت(٢٣٢)،١٩٩٨

٨. د٠عبد الكريم الشرفي: من فلسفات التأويل الى نظريات القراءة،ط ١،منشورات الاختلاف،الجزائر،٢٠٠٧ .

٩. د٠عزيز العظمة:العلمانية من منظور مختلف،ط٢،،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت ١٩٩١.

١٠. علي حرب:الممنوع والممتنع،ط١،المركز الثقافي العربي،بيروت ،١٩٩٥

١١. ----------:نقد الحقيقة،ط١، المركز الثقافي العربي،بيروت ،١٩٩٣

١٢. ----------: نقد النص،ط١،المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٣.

١٣. محمد بن الحسن الحر العاملي: الفوائد الطوسية،ط٢،مكتبة المحلاتي،قم د ت.

١٤. ----------:تفصيل وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة،ط٢،تحقيق مؤسسة ال البيت لاحياء التراث،بيروت٢٠٠٣

١٥. د٠محمد جديدي: الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد روتي،ط١،منشورات الاختلاف ،الجزائر٢٠٠٨.

١٦. محمد عزام : اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب الى المكبوت،ط ١،الهيئة العامة السورية،دمشق ٢٠٠٨.

١٧. د٠محمد محمد يونس : المعنى وظلال المعنى ،ط٢،دار المدار الاسلامي ،بيروت٢٠٠٧.

١٨. د٠محمد مصباحي:الوجه الآخر لحداثة ابن رشد،ط١،دار الطليعة، بيروت ١٩٩٨.

١٩. د٠محمود البستاني : دراسات في علوم القران الكريم،ط١،دار مدينة العلم،قم ١٤٢٧،.

٢٠. ----------:المنهج البنائي في تفسير القران،ط١، دار الهادي، بيروت ٢٠٠١.

٢١. ----------:التفسير البنائي للقران الكريم، ط١،مجمع البحوث الاسلامية، مشهد ١٤٢٢ .

٢٢. د٠ميجان الرويلي، د سعد البازغي :دليل الناقد الادبي،ط٣،المركز الثقافي العربي،بيروت،٢٠٠٢.

٢٣. ميرزا حبيب الله الخوئي :منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة،ط١،دار المحجة البيضاء،بيروت ٢٠١٣

٢٤. نهج البلاغة،ط٦،مؤسسة النشر الاسلامي، قم ١٤٢٢.

الهوامش

[١] عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة ،ط١، المجلس الوطني للثقافة والفنون،سلسلة عالم المعرفة،كويت(٢٣٢)،١٩٩٨، ص ١٦٥

[٢] علي حرب:الممنوع والممتنع،ط١،المركز الثقافي العربي،بيروت ،١٩٩٣، ص٧١

[٣] عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة ،مرجع سابق،ص٢٩١

[٤] علي حرب: الممنوع والممتنع ، مرجع سابق، ص٥٣

[٥] المرجع السابق ،ص ٢٢

[٦] محمد عزام : اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب الى المكبوت،ط ١،الهيئة العامة السورية،دمشق ٢٠٠٨،ص٣١٩.

[٧] امبرتو ايكو : التأويل والتأويل المفرط،ترجمة :ناصر الحلواني،ط بلا،مركز الإنماء الحضاري،حلب، د ت ،ص ٣٢.

[٨] المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[٩] د ميجان الرويلي،د سعد البازغي:دليل الناقد الادبي،ط٣،المركز الثقافي العربي،بيروت،٢٠٠٢،ص ١١٠.

[١٠] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[١١] ايكو:التاويل بين السيميائيات والتفكيكية،ط١،ترجمة سعيد بنكراد،المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٠،ص١٢٤.

[١٢] المصدر السابق ،ص ١٢٦.

[١٣] امبرتو ايكو: التاويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم:سعيد بنكراد،ط ١،المركز الثقافي العربي،بيروت ٢٠٠٠، ص ١٢٦.

[١٤] عبد الكريم الشرفي: من فلسفات التاويل الى نظريات القراءة،ط ١،منشورات الاختلاف،الجزائر،٢٠٠٧ ،ص٥٧.

[١٥] محمد جديدي:الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد روتي ،مرجع سابق،ص٢٧٠.

[١٦] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[١٧] محمد بن الحسن الحر العاملي: الفوائد الطوسية،ط٢،مكتبة المحلاتي،قم د ت، ص١٩٣.

[١٨] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[١٩] نهج البلاغة،ط٦،مؤسسة النشر الاسلامي،قم ١٤٢٢،وصية٧٧،ص٤٩.

[٢٠] ميرزا حبيب الله الخوئي:منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة،ط١،دار المحجة البيضاء،بيروت ٢٠١٣،مج ٧ ص٣٩٩.

[٢١] العاملي:الفوائد الطوسية، مرجع سابق ،ص١٩٤.

[٢٢] د ابن مالك الجميل: انجيل المسيح حسب البشير يوحنا،ط١، ٢٠٠٤،انظر على سبيل المثال ص ٣٠،٢٨، ٤٠، ٤٤، ٤٨-٤٩، ٥٥، ٧٧، ١٠٢، ١٢٨.

[٢٣] المرجع السابق ،ص ٩.

[٢٤] ايكو:التأويل والتاويل المفرط، مصدر سابق ، ص٤٩.

[٢٥] الشرفي:من فلسفات التاويل الى نظريات القراءة، مرجع سابق ،ص ٥٩.

[٢٦] العاملي:الفوائد الطوسية ،،مرجع سابق ،ص ١٩٢.

[٢٧] محمد بن الحسن الحر العاملي: تفصيل وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة،ط٢،تحقيق مؤسسة ال البيت لإحياء التراث،بيروت٢٠٠٣،ج ٢٧ ص١٨٨.

[٢٨] المرجع السابق ، مج ٢٧ص ١٩٦.

[٢٩] المرجع السابق ، مج ٢٧ص ٢٠٤.

[٣٠] الخليل بن احمد الفراهيدي: كتاب العين،ط٢،تحقيق واعادة ترتيب دار احياء التراث العربي،بيروت ٢٠٠٥،مادة اول ص٤٨.

[٣١] العاملي:تفصيل وسائل الشيعة٠٠٠،مرجع سابق،مج٢٧ص١٩٢.

[٣٢] محمد مصباحي:الوجه الآخر لحداثة ابن رشد،ط١،دار الطليعة، بيروت ١٩٩٨،ص ٧٢.

[٣٣] عزيز العظمة:العلمانية من منظور مختلف،ط٢،،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت ١٩٩١،،ص٣٨.

[٣٤] حرب:نقد الحقيقة،ص ١٢.

[٣٥] البازغي والرويلي:دليل النقد الادبي ،مرجع سابق ،ص ٢٧٣.

[٣٦] البازغي والرويلي:دليل النقد الادبي ،مرجع سابق ،ص ٢٧٣.

[٣٧] امبرتو ايكو :الاثر المفتوح،ترجمة:عبد الرحمن بو علي،ط٢،دار الحوار للنشر والتوزيع،اللاذقية٢٠٠١،ص ١٦.

[٣٨] المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[٣٩] ينظرالرويلي والبازغي: دليل الناقد الادبي،مرجع سابق،ص ٢٧٣.

[٤٠] حرب: نقد الحقيقة،مرجع سابق، ص٢٢.

[٤١] عزام:التلقي والتأويل، مرجع سابق، ص٢٠.

[٤٢] د محمود البستاني :المنهج البنائي في تفسير القران،ط١، دار الهادي، بيروت ٢٠٠١،ص ٤٣.

[٤٣] الانبياء/١٦.

[٤٤] ينظر: البستاني :المنهج البنائي في تفسير القران، مصدر سابق،ص ٤٣.

[٤٥] البستاني:المنهج البنائي في تفسير القران، مرجع سابق،ص ٤٣.

[٤٦] المرجع السابق ،ص ٤٤.

[٤٧] المرجع السابق ،الصفحة نفسها.

[٤٨] المرجع السابق ،ص ٤٤-٤٥.

[٤٩] البستاني:المنهج البنائي في تفسير القران، مرجع سابق ، ص ٤٤.

[٥٠] المرجع السابق ، ص ٤٦.

[٥١]البستاني:المنهج البنائي في تفسير القران، مرجع سابق ، ص ٤٧.

[٥٢] المرجع السابق ،ص ٤٨.

[٥٣] المرجع السابق ، ص ٤٩.

[٥٤] البستاني:المنهج البنائي في التفسير ، مصدر سابق ، ص ١٣.

[٥٥] المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

[٥٦] ينظر: البستاني:المنهج البنائي في التفسير ، مصدر سابق ، ص ١٣ – ١٤.

[٥٧] ينظر : المصدر السابق ،ص ١٤.

د محمود البستاني : دراسات في علوم القران الكريم،ط١،دار مدينة العلم،قم ١٤٢٧، ص ٤٥٢.

[٥٨] البستاني:دراسات في علوم القران الكريم ، مصدر سابق ، ص ٤٥٢.

[٥٩] البستاني:المنهج البنائي في التفسير ، مصدر سابق ، ص ١٤- ١٥.

[٦٠] المصدر السابق ،ص ١٥،وينظر : البستاني:دراسات في علوم القران الكريم ، مصدر سابق ،ص ٤٥٣.

[٦١] الشرفي:من فلسفات التاويل النظريات القراءة ، مرجع سابق ، ص ٦٣.

[٦٢] ايكو: التاويل والتاويل المفرط، مصدر سابق ، ص ٨٢.

وينظر:الشرفي: من فلسفات التاويل الى نظريات القراءة، مرجع سابق ، ص ٦٤.

[٦٣] البستاني:دراسات في علوم القران الكريم، مصدر سابق ، ص ٤٥٤.

[٦٤] البستاني:دراسات في علوم القران الكريم، مصدر سابق ، ص ٤٥٤.

[٦٥] ينظر: محمد محمد يونس : المعنى وظلال المعنى ،ط٢،دار المدار الاسلامي ،بيروت٢٠٠٧،ص١٨٣.

د ابراهيم انيس :دلالة الالفاظ،ط بلا،مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة د٠ت، ص١٠٦-١٠٧.

[٦٦] الشرفي:من فلسفات التاويل الى نظريات القراءة، مرجع سابق ، ص ٦٠.

[٦٧] البستاني:التفسير البنائي للقران الكريم، ط١،مجمع البحوث الاسلامية،مشهد ١٤٢٢ ، ج ١ ص ٩.

* لمزيد تفصيل ،ينظرالبستاني: المنهج البنائي في التفسير، مصدر سابق،ص ٣٤-٣٨.

البستاني:دراسات في علوم القران الكريم، مصدر سابق ، ص ٥٠٦- ٥١٩.

[٦٨] البستاني:دراسات في علوم القران الكريم، مصدر سابق ، ص ٥٠٧.

[٦٩] البستاني:المنهج البنائي في التفسير ، مصدر سابق ، ص ٢٧.

[٧٠] ينظر البستاني: دراسات في علوم القران الكريم، مصدر سابق ، ص ٤٨٧.

[٧١] البستاني:المنهج البنائي في التفسير، مصدر سابق ، ص ٢٢.

[٧٢] المصدر السابق ، صفحة ٢٦- ٢٧.

[٧٣] البستاني:دراسات في علوم القران الكريم، مصدر سابق ، صفحة ٤٩٥- ٤٩٦.

[٧٤] البستاني:المنهج البنائي في التفسير، مصدر سابق ، صفحة ١١٢.

[٧٥] البستاني:دراسات في علوم القران الكريم، مصدر سابق ، صفحة ٤٨٣.

[٧٦] المصدر السابق ، صفحة ٤٨٣- ٤٨٤.

[٧٧] البستاني:دراسات في علوم القران الكريم، مصدر سابق ، صفحة ٤٨٣.

[٧٨] البستاني:المنهج البنائي في التفسير ،مصدر سابق ، صفحة ٢٩.

[٧٩] ينظر على سبيل المثال : البستاني:دراسات في علوم القران الكريم، مصدر سابق ، صفحة ٤٨٤- ٤٩٨.

[٨٠] البستاني:المنهج البنائي في التفسير ، مصدر سابق ، ص ١٨- ١٩.

[٨١] المصدر سابق ، ص ١٥٦.